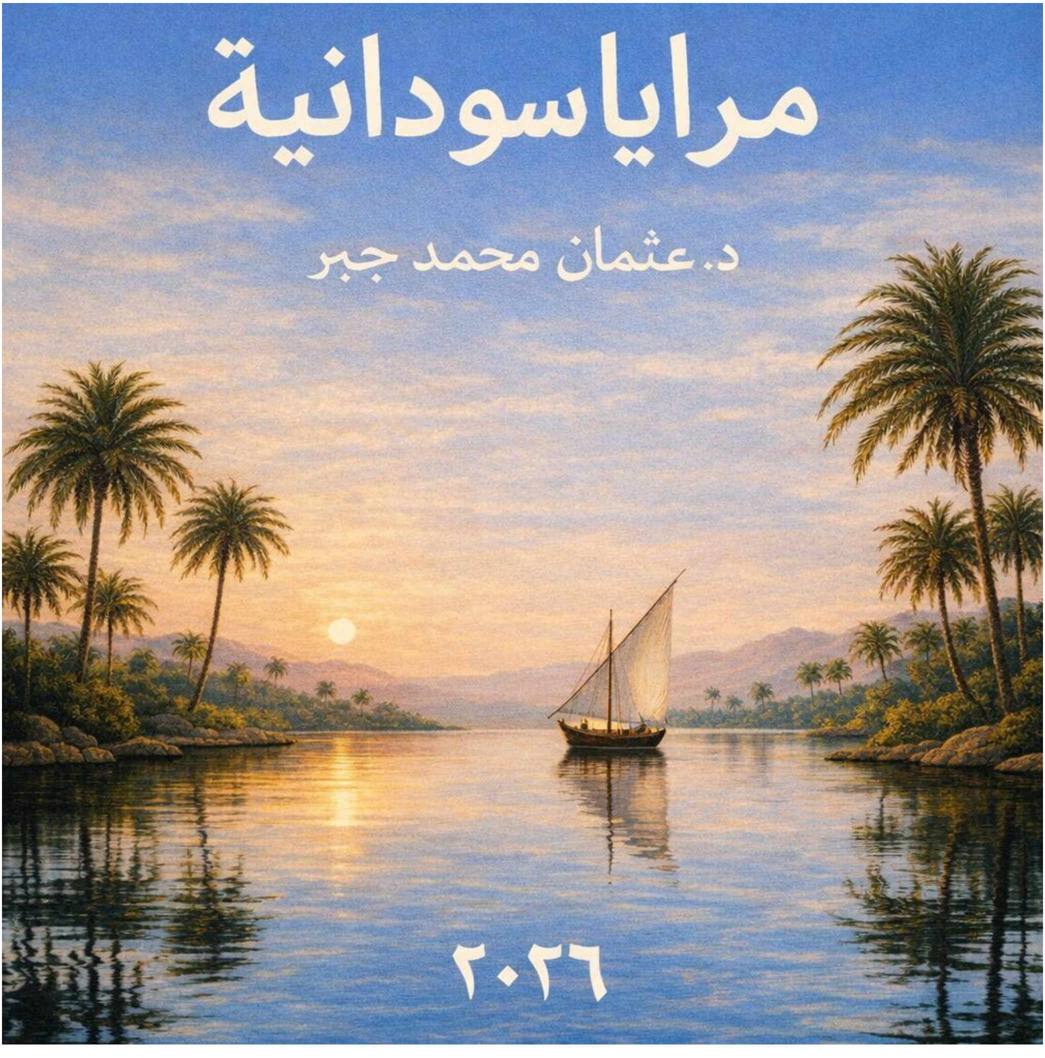

مرايا سودانية
د. عثمان محمد جبر
٢٠٢٦

# مرايا سودانية

## د. عُثمان مُحمَّد جَبْر

## ٢٠٢٦

# الفهرس

# أُفُــولْ



على ضفاف النَّهْرِ، كعادتهِ، جلسَ متأملاً، يُحدِّق صَوْبَ الضَّفةِ الأخرى.

صوتُ الأمواج يَطْغى كلَّما هدأَت أصواتُ الأطفالِ يَسْبَحُون بجوارهِ. وتَحينُ منه التفاتةٌ نحوهم كلَّما علا صوتُهم يَفْجَعُ تأمَّله. ولعلَّ نظْرةً أبلغُ من كلام.

صوتُ الطيورِ من حولهِ يكادُ لا ينقطع، تقتربُ من الماء كلَّما سَنَحَت الفرصةُ لاصطيادِ أسماكٍ هي بعضُ رزقٍ ساقهُ الله.

وصاحبنُا يحدِّقُ في قاربٍ يُلقي صاحبُه الشِّباكَ عساها تُصيبُ بعضَ أسماكٍ قادها حَتْفُها إليه.

مسكينةٌ هي الأسماك، ما بين الهروبِ من الطيرِ، وشباكِ الصَّيادِ، في جهدٍ جهيدْ.

هكذا الحياةُ، هروبٌ من قَدَرٍ إلى قَدَر، وسَعيٌ دَؤوبٌ للبقاء، قال صاحبُنا.

والموجُ ينقلُ بعضاً من غناء الصَّيادِ إلى صاحبِنا فتحرُّكُ شَفَتَيهِ ابتسامةٌ هي إلى السُّخْرِيةِ أقربُ من الرِّضا عن صوتِ الصَّياد الذي لربَّما لا يَجرُؤُ على إطلاقِ العنانِ لصوتِهِ إلا وسْطَ النَّهر حيث لا إِنْسَ ولا جِنَّ يَحْمَلُ ذلك.

انْتَبَهَ صاحبُنا لطائرٍ ليس بعيداً عنه يَعبَثُ بصُفَيْقاتٍ سَقَطَتْ من شَجرةٍ بجوار النَّهْرِ. واسْتَغْرَقَ متأمِلاً، شارِداً عمَّا حَوْلَهُ، ونَظَمَ يقول:

طائرُ يَعْبَثُ بِوَرَقِ الشَّجَرْ
قَذَفَ بِهِ على سَطْحِ النَّهَرْ
أَيْنَ يَحْمِلُهُ؟
لا يَدْري
في رَحِمِ القَدَرْ

حَباكَ اللهُ فُؤاداً

سَمْعاً وبَصَرْ

تَعْلَمُ أَيْنَ المَفَرْ

ما الخَيْرُ وما الشَّرْ

طائرُ يَعْبَثُ بِوَرَقِ الشَّجَرْ

وتَعْبَثُ بالعُمُرْ!!!

والشَّمسُ تُؤْذِنُ بالغياب.... الصبيةُ، والأسماكُ، والطيرُ، والصَّيادُ، وصاحبُنا، وحتَّى الضَّفةُ التي أَلِفَها وأَلِفَتْه، "كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذي الجلالِ والإكْرام".

١٤ فبراير ٢٠٢١

# جلد الثعبان



التقيا عند صالة الوصول بمطار الخرطوم نَسيجُ وَحْدِه.

آخرُ لقاءٍ جمع بينهما مصادفةً كان قبل خمس عشرة سنة في شارع الحرية المؤدي إلى حي السجَّانة!! حين أخبر الرشيد علياً أنه قد حصل على عقد عمل في دولة خليجية، وسيغادر خلال أسبوع.

افترقا بعد أن تبادلا أرقام التواصل، واتفقا على ترتيب "لمة" تجمع شتات المجموعة، عُشرة الأيام.

**علي**: يا هو الرشيد ذاااتو ما اتغير، ابتسامتو المسيخة البايخة ديك، تُضْمِرُ الكثيرَ اللا مثير.

رغم إني سلمت عليهو بالأحضان، وقَلَدتو قَلْدَة شوقنا بحر، لكن حسيت بجفا ونفور ما عادي.

## زاد الشوق علينا

لم يشأ عليٌّ أن يخبرَ أهله في قريته على ضفاف النيل الأبيض جنوب غرب الخرطوم بموعدِ وصولِهِ حتى لا يتكبَّدوا المشاق زرافاتٍ ووحداناً. فهو يُدركُ تماماً أنهم إذا علموا بذلك سيتجمَّعونَ من كُلِّ فَجٍّ عميقٍ، تاركينَ أشغالهم ومصالحهم ذات الأولوية القصوى والدُّنيا، ويقطعون الفيافي لاستقباله في المطار. ففضَّل أن يتلقَّى أرتالاً من "اللوم بالكوم" عِوِضاً عن ذلك. فاستأجر سيارة ليموزين Brado تنكيهو مظبط وملان من شركة شل[١].

وفي الطريق إلى القرية ينظر عليٌّ يمنةً ويُسرى على جانبي الطريق، ولسان حاله يقول:

---

[١] من قصيدة "البوكسي" للإمام الشيخ العارف بالله عبدالرَّحيم البُرعي.

المناظر هي ذاتا

والصور نفس المشاهد

الشوارع والبيوت

الأماكن والمقاعد[٢]

لمتين البلد دي تبقى كدا؟

يا ها زي ما خليتا، ويمكن أسوأ

بالله شوف المساحات الفاضية دي مهملة كيفن!

ياهو شارع الزلط الخليتو قبل ١٥ سنة، محفَّر، وتآكلت أطرافه. كنهر تسلَّط عليه الجفافُ فأحاله بركاً متناثرة، يلعنُ بعضُها بعضاً.

---

[٢] الأبيات من قصيدة الاستحالة للشاعر الغنائي جمال عبدالرَّحيم، التي تغنت بها مجموعة عقد الجلاد. كما التقى مع الفنان النور الجيلاني في رائعته العصفور.

وتخطرُ على باله هولندا واليابان، تغالبانِ الطبيعةَ وأهوالَها، ومع ذلك، تُغرقُ الجبنة الهولندية أسواق العالم، والتويوتا اليابانية تجوبُ الصحارى والوديان في كلِّ أصقاعِ الدنيا.

يقطع سائق الليموزين شروده وهو يزيد درجة صوت الرادي حين بدأ صوت الفنان إبراهيم موسى أبَّا[٣] يصدح برائعة الشَّاعر عبدالله الكاظم[٤]:

عيني عليكِ باردة

يا السَّمحة يا الواردة

يا الفقرا ردو لي

رويحتي هناك شاردة

---

[٣] المطرب إبراهيم مُحمَّد موسى، واشتهر باسم إبراهيم موسى أبا، أحد المجددين للتراث الغنائي الشعبي الكردفاني. من مواليد مدينة الأبيض حاضرة ولاية شمال كردفان في العام ١٩٤٥.

[٤] الشاعر الغنائي عبدالله جبريل عبدالله خالد، واشتهر باسم عبدالله الكاظم، من مواليد مدينة بارا بولاية شمال كردفان في العام ١٩٤٥م.

**علي متجاوباً بتلقائية**: يا سلاااام ياخ، إبراهيم موسى أبا:

البنية مالكِ

زعلانة مالكِ

أنا قلبي من طراكِ

ما عشق بلاكِ

**السائق**: غنانا جميل ياخ، وبلدنا أجمل.

الحديث عن البلد وحالها طوى المسافة حتى بدت القريةُ تلوحُ في الأفق، وقلب علي يزداد خفقاناً، الخمسة عشرة عاماً تتلاشى، وتذوب كقطعة ثلج في مرجلٍ يغلي.

صَبا شَوقاً فَحَنَّ إِلى الدِيارِ

وَنازَعَهُ الهَوى ثَوبَ الوَقارِ [٥]

---

[٥] البيت من قصيدة للشاعر ابن المقرب العيوني، واسمه الكامل علي بن المقرب بن منصور بن المقرب ابن الحسن بن عزيز بن ضَبَّار الربعي العيوني، جمال الدين، أبو عبد الله. وهو من شعراء العصري الأيوبي من منطقة البحرين.

عليٌّ ينظر في كل اتجاه دون تركيز.

طاحونة عم الزين عند مشارف القرية، كما هي، ما تزال صامدة.

أين زريبة الحاج حمد، كانت هنا

يا سلاااام، سبيل ست النَّفر... لسع زي ما هو
وعند البيت الناصية حيث شجرة اللبخ، يتوقف نبض القلب المولَّه بالسَّراب:

يا جرحَ دنياي الّذي لا يندملْ
يا من تركتِ القلبَ ينزفُ في أنين
حسراتِ لحظات توالت في وجلْ
كصدي يطير مضيَّعا عبر السنين[6]

---

[6] من قصيدة "ماذا يكون حبيبتي" للشاعر والأستاذ الجامعي والمذيع، حسن عباس صبحي، التي تغنى بها المطرب عبدالكريم الكابلي. ولد الشاعر في مدينة شندي بولاية نهر النيل في العام ١٩٢٨.

**السائق:** يا سيد... يا سيد، يمين .. شمال وللا طوالي ... يا زول! سرحت وين؟

**علي منتبهاً بلهفة:** البيت القدامو شجرة النيم ديك.

**السائق:** الجنبو الدكان؟

**علي:** أيوا بس ياهو زاااتو

علي والسائق يُنزلان الحقائب من العربة.

صبيٌّ في العاشرة من العمر تقريباً يفتح الباب.

**صوت من داخل البيت:** يا علي، دي عربية منو الوقفت قدام بيتنا دي؟

**الصبي:** ما بعرفم يمة.

**علي:** ازيك يا علي.

الصبي يهرول إلى الداخل منادياً: يمة.. يمة.

**علي للسائق:** بالله عليك اتفضل معانا، المغرب قرَّب يأذِّن، صلي معانا، وأكل ليك لقمة واتوكل بعد داك.

**السائق:** الله يديك العافية، بصلي في الطريق، لازم أرجع طوالي عشان أسلم العربية.

يستقبل علي الباب بعد أن ودَّع السائق، فإذا بعم السر واقفاً يغالبُ الدَّمعَّ.

**علي:** يجثو على الأرض لا يقوى حراكاً، وبصوتٍ مبحوح: أبوي

**مريم:** وابنها علي خلف عم السر: علي أخوي!!! يا حليلك يا ود أمي.

خمسة عشرة عاماً تطويها الأحضان، وتغسلُ قسوتها الدموع.

**عشرة الأيام**

لم تمضِ سوى بضعة أيامٍ حتى رتَّب علي "اللمة" في القرية الآسرة. وقبل صلاة الجمعة، اليوم المحدد لـ"اللمة"، وصل أربعتهم إلا خامسهم الرشيد، هاتفه مغلق، ولم يبعث برسالةٍ لعلي يوضح سبب تأخُّره.

اكتظَّ الديوان بالأهل والجيران احتفاءً بعلي ورفاقه.

محمولةً على الأكتاف تحتشد الصواني بأصنافٍ من الطعام يتوسَّطها "الضَّلِع" تحفُّه كما الملكة بين وصيفاتها.

كلَّما همَّ أحد الضيوف بالقيام يزجره حاج السر: حرَّم تقعد، أكلنا ما عجبك وللا شنو.

واقف فوق الناس يشوف الصحن الفِضا ينادي بأعلى صوتو: يا ولد جيب سلطة، خت الصحن دا هناك، زيد الملاح دا، جيب زيادة رغيف، وين الكسرى يا شباب.

كؤوس الشاي تتلقَّفها الأيادي مع أحاديث ذات شجون وشؤون زادها طلاوةً وحلاوةً ظريف القرية ميرغني.

بدأت الشمس تلمم خيوطها، وتفتح الدروب لليل فيدلف بلا استئذان، وإذا بالرشيد يدخل على المجموعة وهم في "نص" الحوش على سُررٍ متقابلين.

يتحلَّقون حول صينية شاي "مقنَّن" بمعيَّة صحن "زلابيا" مرصوصة بعناية، عليها سكر أبيض مسحون كبقعِ جليدٍ تناثرت على شجيرات الأَرْز في جبال لبنان.

**جميعهم بصوتٍ واحد:** أهلاً يا الدوش، لقب الرشيد.

سلَّم الرشيد بلا حرارة، واستلقى على أحد الأسرَّة، إحدى قدميه على الأرض والأخرى فوق السرير، ويداه خلف رأسه، محدقاً نحو السماء يزينها قمر ١٤.

لم ينتظر أحداً ليسأله ما الذي أخَّره، فقال:

ياخ دي رحلة زِفْتْ، متعبة، طريق محفَّر، واللستك بنشر، وما كان عندي عفريتة، انتظرت لحدي ما وقف لي واحد في الطريق وأداني عفريتو وغيرنا اللستك. أففففف... ثم لفظة بذيئة بدون مبرر.

**قاطعه عباس:** كدي روق يا حبيبنا، وأحمد الله الوصلت بالسلامة.

**الرشيد:**..... كلمة أشد بذاءةً من التي قبلها، والله كان أخير نتلم في الخرطوم من المشوار التلتلة دا.

أسَرَّها علي ولم يُبْدِها، وقال: كدي قوم أخد ليك حمام، وصلي، تلقى الأكل جاهز، بعد داك نوم طوالي.

**الرشيد:** أنوم!! أنوم وين؟ إنت ما نصيح وللا شنو، أنا بي ليلي دا راجع الخرطوم، عندي برنامج بكرة الصباح بدري.

**صلاح:** كدي قول خير، وبيت وقوم الصباح بدري، سفر الليل، وبراك كمان... ما كويس.

**الرشيد:** بضحكة ساخرة: ياخ بالله سيبك من الخرافات دي، يعني حيطلع لي بعَّاتي وللا شنو.

**صلاح:** يتنهَّد، مستلقياً على السرير، يُخرجُ صندوق سجاير برنجي من جيب العرَّاقي، يضعُ السيجارةَ في فمهِ

ثم يُشعلها، ويجر نفس طوييييل حتى تحمرَّ مقدمة السيجارة، وينفثُ الدُّخانَ بقوةٍ نحو السماء: خلاص خير، عديلة يا خوي، سافر الله معاك.

**الرشيد:** يرشف كوباً من الشاي ويضعه بقوة على الصينية فيقول: أها يا جماعة، ودعتكم الله.

**علي**: يعني يا الدوش ما غيرت رايك؟ مُصر تمشي برضو!

إنت مما جيت ليك أقل من ساعتين، والمشوار من هنا للخرطوم ما أقلَّ من تلاتة ساعات، ما ممكن تسافر بي تعبك دا!

**الرشيد:** والله يا علي معليش كان نفسي أبرمج معاكم، لكن ظروفي ما بتسمح.

**علي يرافقه إلى الخارج:** خير يا زول، إن شاء الله بنتلاقى تاني قبل ما أسافر.

**الرشيد:** ما اعتقد ممكن نتلاقى، أنا راجع بعد أسبوع، ..... لفظة بذيئة أخرى يسبُّ فيها البلد وحالها لما وجده من عناء منذ قدومه.

أنا مزحوم جداً، وعندي مشغوليات والتزامات. والله حتى ناس بيتنا ما قعدت معاهم.

ويصعدُ السيارة، وينطلقُ بها بطريقة مزعجة قطعت متعة الأطفال يلعبون في الميدان "شليل وينو" فيفسحون لها الطريق مخلفة وراءها غباراً يغمرهم وهم يضحكون.

كان علي ما يزال واقفاً حتى غيَّبت خيوطُ الظلام الرشيدَ وسيارته ذات الدفع الرباعي فانقشعَ غبارها،

وانقشعَ معه ما تبقى من الدوش في ذاكرة علي. يقول في نفسه:

ليس كلُّ بالغٍ عاقل، وليس كلُّ عاقلٍ راشد. فالناس يتساوون في البلوغ الجسماني، ويتفاوتون في نظيره العقلي. فالعقلانيةُ ضبطُ القولِ والسلوك. والرُّشدُ الحرصُ على الثبات، والخوفُ من الزَّيْـغ. قال فتيةُ الكهف: (رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا). وقال سيدنا موسى عليه السَّلام للعبد الصَّالح: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا).

فإذا رأيتَ المرءَ قد جاوز الأربعين، ولم يرعوِ، فأعلم أنَّ به بقية من طفولةٍ ومراهقةٍ لم تنضجْ بعد. فمن ذلك بذاءةُ اللسان وفُحْشُه. وخيرُ دواءٍ لمثل هذا التَّغافلُ والتَّعامي لتتَّقي بوائقَهُ وفُحْشَهُ. وهذا لعمري توجيهٌ ربَّانيٌّ لخير البرية صلواتُ ربي وسلامي عليه: (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: (إنَّ شرَّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة، من تُرك اتَّقاءَ فُحْشِهِ).

علي متحركاً بخطى متثاقلة، يداهُ خلفَ ظهره:

الله يهديك يا الرشيد، حتى الغربة البترقق القلوب ما غيرت فيك شي، قساوة قلبك، وإعجابك بنفسك، واللا مبالاة بالآخرين ومشاعرهم وأحاسيسهم.

شخصية بائسة بكل ما يحمل البؤس من معنى.

يستمتع بإيذاء الآخرين حدَّ الإدمان.

العشرة بالنسبة للرشيد لا تعني شيئاً، سيَّانَ لديه إن عاشرته لساعاتٍ أو سنوات.

يأسرك بابتسامته البرَّاقة، وكلامه المنمَّق، لكن كل ذلك - في الحقيقة – مَحْضُ زيف.

فيه بقية من طفولة لا تخفى عليك، حبُّ الاستئثار، والانتقام لأبسط المواقف.

هو الرشيد ولا رشد... الله يصلح حالو.

ثمَّ ما يلبث علي أن يدلف علي إلي الحوش.

**النور**: أها يا أبو علي، زولك فات

**صلاح**: الفات الفات سبعة لفات، ياهو الدوش حالو ما بنصلح.

**عامر**: بالله يا جماعة خلونا من الدوش وسيرتو، وشوفو ليكم موضوع تاني.

**عباس**: يعني عاجباك جيتو الماكان في داعي ليها دي!!

بالله عليك الله يا عامر، هسع دي جية!

مش كان أحسن يعتذر!

والله دي جية أخير عدما.

**علي**: انا المستغرب منو الألفاظ البذيئة الكتيرة دي شنو: كل كلمتين تلاتة، كلمة بذيئة، دا شنو دا! الدوش أبداً ما كان كدا!!

**صلاح**: إنت يا أبو علي عشان طولت من البلد ما عارف الحاصل.

الدوش طلاقو لزوجتو أثر فيه شديد.

وكمان الزاد الطين بلة، إنها اتزوجت زميلو في الشركة الكان شغال فيها، فقرر يطلع من البلد بأي تمن.

**عباس**: يا جماعة، دا ما السبب الحقيقي

أنا خلال السنين الأخيرة دي كنت أقرب واحد فيكم للدوش.

انتو يا جماعة ناسين إنو الدوش دا كان كادر منظم في الحزب الإسلامي، والآن أصبح من ألد أعدائه؟

تابعو صفحتو في الفيسبوك، مليانة بوستات ضد النظام وأتباعو.

اليوم كلو مصاقر الفيسبوك.

ياخ دا في اليوم الواحد بنزل قريب العشرة بوستات، لا خلى فيدوهات، ولا صور، ولا مقالات، ولا ندوات، ولا تسجيلات.

الدوش يا شباب الآن يعاني انفصام حاد في الشخصية، ويمر بمرحلة الثعبان لمن يغير جلدو.

الدوش الآن يتقمص شخصية مغايرة تماماً للدوش صاحب المبادئ التي نشأ عليها في التنظيم من هو تلميذ في المرحلة المتوسطة.

عشان كدا بحاول يكتر من الألفاظ اللي أدهشتكم دي.

فالمسألة وما فيها يا جماعة نفسية في المقام الأول.

الدوش يعيش حالة عداء وصراع مع ماضيه.

شخص غير متصالح مع ماضيه بشكل فظيع.

يحاول طمس ذلك الماضي بأي تمن، عشان كدا بقى يتجنب أي لمة معانا أو مع غيرنا تذكرو بهذا الماضي.

متكئاً على الوسادة، يقول عباس: والله يا أبو علي لو كشحتنا بسيرموس شاي تاني تكون ما قصرت.

خلونا بالله من الدوش وأمورو الما بتنتهي دي.

ويخاطب عامر قائلاً:

بالله قوم جيب عودك من العربية خلينا ننطرب شوية.

عامر يدوزن أوتار العود، ويصدح:

قلبي مالو اليوم من جسمي فرَّ وراح
دمت يا محبوبي ودامت الأفراح
مالو جنح الليل زودني بي كل جراح
والنسيم من قِبلك هبّ زي الراح
يا طبيب أنا سآلك قول لي بكل صراح
النسيم يشفيني أم يزيدني جراح ؟![٧]

---

[٧] الأبيات من قصيدة للشاعر يوسف الرباطابي، وتغنَّى بها العديد من الفنانين أبرزهم هاشم ميرغني.

الأغنية تنكأ جراح علي، السمحة ست الفريق، أم لخمسة أطفال، ولدين وتلاتة بنات، تسكن كسلا أشرقت بها شمس وجدي.

١٤ أغسطس ٢٠٢٢

# حَجَر الحِجْلَة



يَتَهادَى ثَقيْلَ الخُطى من بين فِجاجِ الوادي، تدفعُهُ أمواجُ السَّرابِ وهي تَلْفَحُ بعضَ أشجارٍ متناثرةٍ تكادُ تلتصقُ بالأرضِ من قِصَرِها، وليسَ لها من صفاتِ الأشجارِ شيءٌ سوى هيكلِها.

كَثُّ الشَّعْرِ، مُلْتَفٌّ على بعضه كنَبْتٍ جفَّ حين نضبَ الماء. يُرْسلُ النَّظرَ يمنةً ويُسْرَى دون هدف. وملامحُ الوجهِ لا تُنبيء عن براءةٍ لصبي جاوزَ العَقْدَ الأوَّل من عُمُرِهِ بقليل.

ومن خَلْفِهِ بنتٌ تصغرُهُ بعاميْن، ربَّما، أو ثلاثة على الأكثر. ليست أقلَّ بؤساً منه. حين تنقطع حركتُها يلتفتُ إليها قائلاً: يا بِتْ قُومي من الوَاطَة... بِتْسَوِّي في شِنُو؟

فتجيبهُ بابتهاجٍ: لِقِيْتْ حَجَر سَمِحْ للحِجْلَة.

يُشيحُ بوجههِ عنها مهمهماً بكلماتٍ لم تُعِرْها الصغيرةُ اهتماماً، فيكفيها حَجَرُ الحِجْلَةِ شاغلاً.

## طريق الأسفلت

تنتهي بهما الخطوات إلى شاحنةٍ ذي قاطرتينِ طويلتينِ رابضةٍ على طريقِ الأسْفلتِ الذي يُشاطرُ الصَّبيَّ وأختَه ذاتَ البؤسِ، متآكلَ الأطراف، تَزينُه حُفَرٌ كما جُبَّة الصُّوفي. وشتَّانَ ما بين طريق الصُّوفي وطريقِ الأسفلت.

وفي ظلِّ الشَّاحنة الآخذِ في الزَّوالِ، يَسْتَلْقِي رجلانِ لا يَقْطَعُ حديثَهما سِوى رؤيةُ الصَّبي يقفُ أمامَهما وهو يُلْقي من على كَتفهِ الهزيلِ إنائيْنِ معلَّقينْ بطرفيْ عصًا غليظةً، ليست أَغْلَظَ عليهِ من نَكَدِ الدَّهرِ. تُشفقُ عليه ِكيف يحملُهما فارغيْنِ، فكيف إذا امتلآ.

خاطَبَه أحدُ الرَّجلين: دَايِرْ مُوية، مُشْ كِدَا؟

فيردُّ الصَّبي بابتسامةٍ يحدُوها أمل: أيوا.

الرَّجُل: أَوَّلْ أُمْبَارِحْ ما أَدِّيْناكْ!!! فينهضُ دونما انتظار ردٍّ من الصَّبي الذي انْفَرَجَتْ شفتاهُ حين أيْقَنَ أنَّه قد ظَفِرَ بمرادِه.

وأُخْتُ الصَّبي تقفز على قدمٍ واحدةٍ دافعةً أمامَها الحَجَرَ، فينبهها: يا بِتْ ما تَقَرَبي الزَّلط.

وبينما يُعبِّئ الرَّجلُ الماءَ للصَّبي، كان صاحبه مشغولاً بمشاهدةِ مقطع فيديو على هاتفِه الجوَّالِ لأغنيةٍ جَذَبَت فُضولَ الصَّبي بموسيقاها الطَّروب، فوقَفَ إلى جوارِ الرَّجل يُشاهدُ المغنِّي، وَخَلْفَهُ نَهْرُ النِّيلِ، وهو يُرَدِّدُ:

إجْرِي يا نيلَ الحياة

لولاكَ ما طابتْ حياة[8]

فضحك الصَّبي مخاطباً الرَّجلَ: المـُويَةْ الكَتِيرَة دِي ويْنْ!!!

رَمَقه الرُّجل بنظرةٍ هي مزيـجٌ من الدَّهشةِ والسُّخريةِ دونَ أنْ يُجِيبَهُ.

وجاءَ الرَّجلُ بالماء مخاطباً الصَّبي: خَلاصْ الْيُومْ حَنَصَلِّحْ الشَّاحْنَة ونِتْوَكَّلْ عَلِى الله، الله يعِينَكْ يا وَلَدِي.

فردَّ الصَّبيُّ: شكراً يا عَمِّي، الله يِعْدِلْ طَرِيْقكم.

---

[8] شاعر الأغنية علي محمود التنقاري، وألحان الموسيقار برعي مُحمَّد دفع الله، وتغنَّى بها المطرب عبدالعزيز مُحمَّد داود.

## النيل في المخيلة

ويَقْفُلُ صَبِيُّنا وأُخْتُه عائدينِ، وفي الطَّريق تقولُ البنتُ: أَقِيْفْ نَزِّلْ الجرَكَانَة أَسْقِينِي، أَنَا عَطْشَانَة.

الصَّبيُّ: يَعْنِي مَا قَادْرَة تَصْبُرِي لِحَدِّي مَا نَصَلْ البيتْ!!! أَصْلُو شِي عَطَّشِكْ غِيْرْ نَطّيطْ الحِجْلة دَا مافي.

فيُنْزِلُ الأحمالَ مِنْ عَلَى كَتِفَيْهِ، ويُدْني أَحَدَ الإنائيْنِ إلى فَمِها فَتَشْرَبُ وَهْي قابِضَةٌ على الحجِر بحرصٍ مَلْحُوظٍ، حَتَّى إذا ارْتَوَتْ هرولت أمامَهُ تاركةً إيَّاه يَسْتَجْمِعُ قِواهُ لِيَحْمِلَ أَثْقالَهُ ثانيةً، حَتَّى إذا استقرَّتْ ورَضيَ مِنْها، حدَّق أمامَه مُقطِّباً حاجِبَيْهِ لتُظلَّ عَيْنَيْهِ مِنْ وَهَجِ الشَّمسِ.

وَيَخْطُو الصَّبيُّ وصُورةُ النِّيل في مَخِيلَتِهِ لا تُفارِقُهُ.

ويَلْحَظُ أُخْتَهُ تَرْمِي حَجَرَها تَدْفَعُهُ بإِحْدَى قَدَمَيْها حَتَّى إذا اقْتَرَبَ مَنْها أَمْسَكَتْ بِهِ وهَرْوَلَتْ ثُمَّ تُلْقِيهِ مَرَةً

أُخْرَى وَتَدْفَعُهُ وهَكَذا حَتَّى وَصَلا البَيْتِ، وهو بعضُ أخْشابٍ تَعانَقَت قَسْراً، تَرْجُو الفِكاكَ يَوْماً ما فَتَنْعَتِقَ مِنْ هذا البُؤْسِ.

الأُمُّ تَسْأَلُ: جِيتُو يا ولادْ! مَالْكُمْ جِيتُو سُرْعَة كِدَا؟

ويُلقِي صَبيُّنَا أَحْمالَهُ عَلَى الأَرْضِ التي تَقُولُ: وَيْحَكَ مِنْ شَقيٍّ قَذفتْ بِكَ الأقدارُ إلى هنا.

ويَسْتَلْقِي عَلَى "عَنْقَرِيبْ" تَكادُ حِبَالُهُ تُلامِسُ الأَرْضَ، فيقولُ: لِقِينَا ناسْ الشَّاحْنَة الأَدُّونا المـُويةْ أوَّل أُمْبَارِحْ، شَاحْنَتُمْ لِسَّعْ ما اتْصَلَّحَتْ، أَدُّونَا مُويةْ، لكن قالُوا خَلاصْ اليُومْ بِصَلِّحُوهَا ويمْشُو.

تردُّ الأُمُّ، وَهْي مُنْهمكة في إعداد الطَّعام وبجوارها صبي يحبو يلاحق أخته باكياً يريد حجر الحِجْلَة بإصرار غريب: كتَّر خيرم والله، ما قصَّروا.

والأم تخاطب بنتها: يا بت الشي الفي إيدك دا، أدي لأخوك خلِّي يسكت، لكن البنت تحاول إلهاء أخيها بشيءٍ آخر حتى تصرفه عن الحجر، فما أغنى ذلك شيئاً، بل ازداد صراخُه، كأنَّما يشعر في قرارة نفسه أنْ سيكون له مع هذا الحجر شأنٌ حين يَكْبُرْ.

ويغفو صبينا فيرى فيما يرى النَّائم النيلَ على مقربةٍ من دارهم، وقد استحالَ واديهم خُضرةً ونُضرة، وترك والدُه العمل في الميناء ليؤسس مشروعاً زراعياً ناجحاً، أذهب عنهم البؤسَ، فتنوَّعت مائدتُهم، واستراح من مهمة جلب الماء التي تستغرق ساعاتٍ طوالاً كلَّ يوم. وأخته تلعب الحجلة على ضفاف النهر، وهو يردد:

إجري يا نيل الحياة

لولاك ما طابت حياة

فإذا بأمه توقظه لتناول الطعام الذي لا بديل له إلا في المنام. ولما فرغ من طعامه، نهض لأداء مهامٍ أخرى.

وعند الأصيل، جلس الصبي أمام الدار وأخته تلعب الحجلة، يتأمَّل الشَّمس تُلَمْلِمُ خيوطَ أشَّعتها النَّاعسة، فتمرُّ على الصخور المبعثرة فتضفي عليها لوناً ذهبياً فتبدو كتماثيل معبدٍ فرعوني. وسكونٌ مَهيبٌ يسود المكان إلا من صوت الأم تنادي: يا ولاد خشو البيت، خلاص المغرب دخل.

وما أنْ أرسلت الشَّمسُ أشَّعتها مؤذنةً بيومٍ جديد، حتى استيقظ الصَّبي، وبدأ رحلته نحو طريق الأسفلت، وأخته تدفع حجر الحِجْلة أمامها.

وما دَرَى الصَّبيُّ أنَّ ما بين حجر الحِجْلَة وطريق الأسفلت ضلَّت الحكمةُ الطَّريقْ، وحَجَبَت العَتْمةُ البريقْ.

وما درى أنَّ المـُغنِّي مَضَى، وما يزال النيل يجري لكنَّه ما جَرَى نحو الصَّبي، ولا جَرَى الصَّبي نحوه.

وما دَرَى أنَّ قُلُوبَ بعض من وَلَّاهم الله أمره أقسى من حجر الحِجْلَةِ الذي رُبَّما يتفجَّرُ منه الماء.

١٣ فبراير ٢٠٢١

# عَرَفْتَ فالْزَمْ



عند لقائهم اليومي في المقهى، كعادتهم، تساءلوا: كيف له أن يعتزل النَّاس ويبقى رَهين البيت؟

ما دهاه يا تُرى؟

لا مريضٌ فيحبسه المرض، ولا فقيرٌ فتحبسه الحاجة.

منذ شهورٍ وهو على هذا الحال، ما عهدنا منه ذلك.

حارَ النَّاس في أمره. لم يعد سلمان كما كان!

قليل الكلام إلا فيما يعنيه، ذو سَمْتٍ ووقار، وحكْمةٍ ورأيٍ سديدْ، لا يذكرُ أحداً بسوءٍ، ولا يُحبُّ أنْ يُذْكرَ عنده بسوءٍ أحد. يقضي من حاجاتِ النَّاس ما استطاع، له في قلوب أهْل الحيِّ وُدٌّ أصيل.

لم يأْلُ أصدقاؤهُ جُهْداً في إخراجه من خَلْوَته، واستمرَّ الحالُ أمداً غيرُ قليل، حتَّى خرجَ عليهم ذات يومٍ وهم في غِبْطَةٍ ينظرون!

حدَّثهم بكلامٍ هو إلى الألغازِ أقْرب، لم يُدركوا مرادَهُ واستمعوا منصتينَ، فقال:

بالأمسِ هناءةٌ ويُسْر، واليومَ ضَنَكٌ وعُسْر.

تَقلَّبْنا في نعيم، ونسعى للجَحيم.

كان الزَّرعُ مُخضَرًّا، وصارَ الحصاد مُرًّاً.

قَصَدْنا المنال، فأصابنا الوبال.

أمسُنا ... غدُنا ... كيومِنا، النُّور والنَّار، لم يعد في النَّهر تيَّار. الطِّينُ والطُّيور، وما زلنا ندور.

حتَّامَ ... حتَّامَ في هذه الدَّوَّامة؟ مالنا والظُّنون وقدْ شارَفَت المنون؟

نروحُ ... نؤوب وقد أزِفَ الغُرُوب. الليلُ والنَّهارُ مطيةُ الأسفارْ ... مَفاتِحُ الأسرارْ.

نسيرُ ... نسيرْ، لا ندري المصيرْ.

كيف يا خبيرْ؟

ألستَ مَنْ ناطَحَ السَّحابْ وروَّض وَحْشَ الغابْ!!

ألستَ من اكتشفَ الذَّرَّة وأدْركَ كُنْه المجرَّة!!

فمالكَ أخطأتَ المسارْ وآثرْت البوار؟

متى القرارُ ... متى القرارْ!!!

ذَهُلَ الحضور!! فقال بعضهم: ما دَهَى الحكيمْ؟ أمَسٌّ شيَطانٍ رجيمْ، أو عَلَّهُ سقيمْ؟

وقال مَنْ أدْركَ المـُرادْ:

دَعُوهُ في سلامْ فقد بَلَغَ المـَقامْ.

فغاب عنهم وردَّد:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ .....).

٥ مايو ٢٠١١

# عِنْدَ المـُنْعَطَف



أَكْتُبُ إليكِ مِنْ عِنْد المـُنْعَطَفِ على ضِفافِ الأزرقِ الدَّفَّاقِ، تَحْتَ الشَّجَرَةِ، أَتَذْكُرِينها!! ما تَزَالُ مُوْنِقَةً مُوْرِقةً كَنَضارةِ وَجْهِكِ. تُشَاطِرُنا أَحْلامَنا وآمالَنا. تُغازِلُ النِّيلَ يَحْملُ أَوراقَها حِينَ تَهْوي إليْهِ بِدِفْءٍ وَحَنانٍ. هو بَعْضٌ مِنْها، وهي كذلك. يُشَاطِرانِ الشَّمْسَ وُدَّاً مَوْصُولاً لا يَنْقَطِعْ.

كَمْ تأَمَّلْنا رَقْراقَها عِنْدَما تَسْتَحِمُّ أوراقُها بأَشِعَّةِ الشَّمسِ فَتَجْعَلُ مِنْ ظِلِّها لَوْحَةً رَاقِصةً تَحْتَفِي بِلِقائنا. كلانا يَدينُ لِهذِهِ الصِّلاتِ بِشَجْوٍ وَشَجَن. ما أَزالُ أَتَعَهَّدُهُم، وأُبَشِّرُهُمْ أَنَّكِ بِخَيْرٍ وفي خَيْر.

**جمل الشيل**

رُبَّما تسألينَ عَنْ جمال، ذلك الشَّابُ في المرْحلةِ الثَّانوية، كان يأتي أَحياناً للصَّيدِ تحت الشَّجرة.

كان فيه شيءٌ غيرَ مَعْهودٍ بين أَقْرانِه. أذكرُ جيِّداً عندما دعانا لزيارتِهِ فِي البيْت. كم تدفَّق فرحاً عندما اسْتجبنا بحماسٍ لدَعوتهِ.

كم تألَّمتُ عندَ رُؤيةِ والدِهِ الضَّرير. لا أَعرفُ كيفَ أعيشُ إحساساً كهذا. الإنسانُ بلا بَصَرٍ، لا يرى الحياةَ مُزدهيةَ الأَلوانِ. تتوزَّعُ حاسةُ البَصَرِ بينَ السَّمعِ، واللمسِ، ورُبَّما البَصيرة. نعم، هِي البصيرةُ، مَرْبَطُ الفَرَسِ. فكمْ مِنْ مُبْصرينَ ولا بَصَرْ! (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

الرَّجلُ آنَسَنا بوُدٍّ لم أَعْهَدهُ قَبْلُ. أَتْحَفَنا بمواقفَ غايةً في الطَّرافةِ حتى أنْسانا أنَّنا نُجالسُ كفيفاً. وزوجتُهُ تَروحُ وتَغْدو بالشَّاي "المُقَنَّنْ". يا لله، حقَّاً كانت أُمسيةً ماتِعةً.

بعدها، أدْرَكتُ سِرَّ البَريقِ في عَيْنَيْ الوَسيمِ جمال. حينها فقطْ أَيْقَنتُ أنَّ صَيدَهُ للسَّمكِ كان يَمْنُحُهُ المساحةَ للصَّفاءِ الذِّهْنيِّ، والشَّجرةُ مُتَنَفَّسٌ يَبُثُّها ما بِهِ. أَلَمْ تَلْحَظي أَنَّه كان يَعودُ خاليَ الوِفاضِ بلا سَمَكْ؟

جمالُ يا أَميرتي احْتَضَنَتْهُ أمواجُ "المالِحْ" في طَريقهِ إلى أوروبا. رُبَّما اختارَ العَيْشَ بين الأسماكِ التي أَلِفها وأَلِفَتْهُ.

كمْ جمالٍ ابْتَلَعتهُ رمالُ الصَّحراءِ، أو كان ضحيةَ العصاباتِ التي تَحْتَجزُ المهاجرينَ بُغْيةَ الفِديةِ! أو من ماتَ في غاباتِ أُوروبا بعدَما تَجمَّدتْ عُرُوقُهُ من زَمْهريرِها.

زَمهريرُ أُوروبا، ولهيبُ الصَّحراءِ أَرْحمُ عليهم منْ جُورِ السَّاسةِ في بلادِهِمْ.

كَفَى بكَ إثْماً سيِّدي

جُمُوعُ البائسينَ تَرْكَبُ البَحْرَ رِغاما

تَرْمُقُ شاطئَ الإفْرَنْجِ

تَرْجو الوصولَ سلاما

تَبْلُغُ حاجةً في نَفْسها

تَسْتعيدُ بَعْضاً من كرامة

تَغْسلُ الرَّهَقَ المـُخيِّمَ من دُهورْ

وأسىً فاقَ الْجَحيمَ حِماما

كفى بِكَ إثْماً سيدي

المـُتوسِّدينَ السُّهْدَ نِياما

المـُلْتَحفينَ الْجُوعَ

يُسرُّونَ للنَّجْمِ كلاما

عَلَّه شَكْوى

أوْ رُبَّما نَجْوى

أوْ بَعْضُ ما يُنَغِّصُ الأَحْلامَ

كَفى بِكَ إِثْماً سيدي

الأرْضُ تَذْرِفُ الدَّمْعَ يَتامى

تَحْنو عليهم

تغسلُ دَمْعهم

تحملُ همَّهم

فهي الرَّؤومُ إذْ ظَلَمْتَ إماماً

كَفى بِكَ إِثْماً سيدي

أَطْفالُ الشَّوارِعِ هائمينَ

يقْتاتون فُتاتَ الأَرْصِفة

سَقَطوا من تِعْدادِ سُكَّانِ البلادِ

وسجِّلاتِ الأَرْشَفة

أَرْحَمُ بهم من عَدْلِكم

فبعضُ العَدالةِ مُجْحِفة

تركوا المدارسَ آيسينَ

هجروا مَعينَ المعرفة

هُمُ بَعْضُ وَيْلاتِ الحُرُوبْ

جِدارُ النُّخْبةِ المـَثْقوبْ

كفى بك إثماً سيدي وكفى[٩]

خَبِّريني عنكِ، وعن المسْتشفى الذي انتقلتِ إليهِ حديثاً، أهو في العاصمةِ مَسقط أم مدينةٍ أخرى؟ عرفتُ من سالم قريبِكم وزميلُنا في الوزارة أنَّكِ ستحضرين في إجازة هذا العام لتُزَفِّي لابنِ خالك. دعاني بعدَ أَنْ حاولَ التَّخفيفَ عنِّي، ووعدتُهُ بالحضور.

١١ يوليو ٢٠٢١

---

[٩] القصيدة من نظم المؤلف.

# السوداناوية



وقف في انتظار القطار قاصداً صديقاً له في مدينة تبعد عن لندن، عاصمة الضباب بضع ساعاتٍ.

أخرج هاتفه من جيبه وألقى عليه نظرة عابرة كأن لم يكن يرغب في ذلك، وبحركة رتيبة أعاده من حيث أخرجه.

حانت منه التفاتة إلى اليسار حيث رنق فتاة على بعد أمتارٍ تبدو سودانية الملامح، بل هي كذلك.

خطى نحوها ناهزاً قدمه اليمنى، ساحباً اليسرى دونما استئذان.

قال لها وهي محدِّقةٌ في شاشة هاتفها، ورمشاها دونما حراك كأنَّما تعطَّلت وظيفتيهما كما الآخرين من حولها:

السلام عليكم، صباح الخير، أنا ونيس

التفتت إليه دون ان ترفع رأسها، ويداها تحملان الهاتف في انتظار الأمر بالاسترخاء ربَّما، وقالت:

أهلاً صباح النور، أنا منال

وقبل أن يبادرها بجملة أخرى وقف القطار ليفتح أبوابه بفظاظة في انتظارهما والجموعَ الأخرى للدخول، ثمَّ الانطلاق إلى الوجهات المعتادة التي لا يحفل بها، ولا تأبه له.

حظيا بمقعدين متجاورين. وبعد تبادل الجمل الراتبة من قبيل السؤال عن الحال والأحوال دون انتظار إجابة كعادة السودانيين عندما يلتقون، عرَّفها بنفسه، ونيس العبيد.

وصل المملكة المتحدة في ٢٠٠٣ بعد رحلة سندبادية بدأت بلبنان التي حلَّ بها في ١٩٩٧ غير

مرغوب فيه، ثم تركيا فاليونان، تتبادله عصابات تهريب البشر مجرد بضاعة انتهت صلاحيتها تُنقل من عربة إلى أخرى تمر بمنعرجات اللوى هرباً من العَسَس حتى انتهى به المطاف إلى الامبراطورية التي غابت وراء الشمس.

يمتلك مطعماً للمأكولات الشعبية السودانية آل إليه بعد شراكة مع أحد السودانيين الذي تزوج بفتاة أسترالية من أصل صومالي جاءت لزيارة أمها وشقيقها، جيرانه "الحيطة بالحيطة بس بدون نفَّاج" وسافر معها إلى بلاد الكانغارو.

أثنت منال على مثابرته وإصراره وصبره على ما لاقاه من مشاق حتى وصل وجهته السامية بلا سيقان.

ولم تبخل بالتعريف بنفسها، منال العجب، مطلَّقة، وأم لطفلين، الناير وعبير.

جاءت إلى المملكة عروساً متوَّجة بزينتها التقليدية ليلتئم شملها مع زوجها الطبيب الذي يعمل في إحدى مستشفيات أيرلندا.

لم يفصل بينهما سوى عشقها لتخصصها الذي برَّزت فيه، الإرشاد النفسي، حيث واصلت دراساتها العليا في برنامج الماجستير، وتفصلها عن مناقشة أطروحة الدكتوراه بضعة أشهر.

بادلها الثناء دون أن يسأل عن تفاصيل الطلاق وملابساته. وقال لها: إنت من وين يا منال؟

التفتت إليه مندهشة: ما فهمتك!! كيف يعني من وين؟

**ونيس:** قصدي من ياتو قبيلة؟

صمتت برهة، وأطرقت ذاهلة، وكأنَّما صُفعت على خديها جئية وذهاباً.

وخرجت من القطار الذي توقف في غير وجهتها حيث قررت انتظار القطار التالي رغم فارق الزمن بنصف ساعة.

لم يكمل دهشته من ردة فعلها حتى أغلق القطار أبوابه بطريقة أكثر فظاظة كأنَّما يردُّ الصَّفعة إليه أضعافاً مضاعفة.

اختارت أحد مقاعد الانتظار في المحطة، وجلست تعبث بهاتفها دونما تركيزٍ، تسائل نفسها:

القبلية دي حتنتهي متين؟

السودانيين ديل متين حيوعوا، متين يتغيروا؟

يا ربي، ما كفاية إننا سودانيين؟

يعني معقولة حتى العاشو في الدول الغربية لسع برضو بسألو أسئلة زي دي؟

استحضرت الأبيات الشهيرة من قصيدةٍ للشاعر إبراهيم العبادي:

جعلي ودنقلاوي وشايقي شن فايداني
غير جعلت خلاف خلت أخوي عاداني
خلوا نبانا يسري للبعيد والداني
يكفي النيل أبونا والجنس سوداني[١٠]

تنهَّدت بعمق وما تزال تحدِّق في هاتفها، ويداها في انتظار الاسترخاء ربما، وأبواب القطار تفتح بفظاظتها

---

[١٠] الأبيات من قصيدة للشاعر إبراهيم أحمد بابكر العبادي من مواليد مدينة أمدرمان في العام ١٨٩٤.

المعتادة، فتدخل، وتحظى بمقعدٍ فتهوي بجسدها عليه حتى تقضَّ مضجعه. ويتحرَّك القطار لوجهاته التي لا يحفل بها، ولا تأبه له.

تبدو سودانية الملامح، بل هي كذلك.

١ أغسطس ٢٠٢٢

# ساوا مُعسكرُ الجحيم



الواحدة وثلاثٌ وأربعون دقيقة صباحاً بتوقيت أسمرا.

نسائمُ لطيفةٌ تَعبثُ بستائر النافذة تَلُفُّها وتُفْرِدُها كيفما شاءت.

سونا تقف على الشُّرْفة المطلَّة على ساحةٍ يتوسَّطها كلبان، أحدُهما يتمدَّدُ بلا حراكٍ، مُجْهَدٌ ربَّما، بينما الآخرُ واقفٌ يلتفتُ يمنةً ويُسْرى كأنَّما يُداعبُ طفلَ جِنِيٍّ ضلَّ طريقَه.

الصَّمتُ مُطْبقٌ إلا من أصواتِ الجَنادبِ مجهولةَ المصدر.

تحاولُ سونا تثبيتَ الستائر فيتحركُ أحدُ مصراعيها مُحدثاً صوتاً يستيقظُ على إثرِهِ تادرس، زوج سونا، بصعوبةٍ بالغةٍ يَفتحُ جَفْنَيْهِ:

سونا!! ما بِكِ؟

**سونا**، ودمعاتٌ متقطعةً تتحدَّرُ من خدَّيها كما حبَّاتِ المطرِ على صفقِ الشَّجرِ في غابةٍ استوائيةٍ، وأنفاسٌ مليئةً بالخوف:

لقد حانَ الوقتُ لأن ترحلَ ابنتنا سارا، وإلا ستلقى ذات مصير أختها تانا.

يجب أن تتخذَ قراراً حاسماً وشجاعاً، تادرس.

لم يبقَ أمامنا خيارٌ، إنَّنا نُسابقُ الزَّمن.

كلُّ محاولاتِكَ باءت بالفشل، طلبتَ من قريبكَ في الجيشِ أن يبذلَ ما في وُسْعِهِ حتى تُسْتَثْنى سارا من دخول المعسكر، لكنه عَجِزَ عن فعلِ شيء.

الأفضلُ أن نرسلها إلى السودان، لقد وعدني ابن خالي أن تبقى معه بالبيت هناك في مدينة كسلا حتى يتسنَّى لها اللحاقُ بعمَّتها في السويد.

دورنا فقط أن نضمنَ لها وصولاً آمناً إلى الحدودِ السودانية، وهو سيتولَّى كلَّ شيء.

مالكَ واجمٌ يحتويكَ الصَّمتُ؟ تكلَّمْ ... قل أيَّ شيء.

**تادرس،** جاهداً يغالبُ الدُمُوعَ، وبصوتٍ مبحوحٍ:

هذا .. هذا ... ما قرَّرتُهُ بالفعل يا عزيزتي. لا مناصَ من أن ترحلَ سارا فوراً .. نعم فوراً.

ما تزالُ تانا أمامَ ناظريَّ.. في خافقيَّ.

أنَّى اتَّجهتُ أجدُها، غضَّةَ الوجهِ كبُرْعِمِ الياسمينَ بداية ربيعِ أسمرا.

آهٍ يا تانا... ما أسرَعَ ما مضيتِ.

هكذا، وبكلِّ بساطةٍ يخبرونكَ أنها ماتت في المعسكرِ بسبب الملاريا.

لا أدري ما المَغْزى من اشتراطِ التدريبِ العسكريِّ للفتياتِ والشبابِ قبل دخولِ الجامعة؟

لقد أصبحت إرتريا سجناً كبيراً.. ليست تلك التي نمتْ حُلماً في دواخلِنا منذُ الصِغَرْ.

لكن سُرْعانَ ما تبدَّدَ ذلك الحُلُم، وصارَ كابوساً يلازمُنا في منامِنا وصَحْوِنا.

لا أكادُ أُصدِّقُ أنَّنا نعيشُ وضعاً أسوأَ ممَّا عاشه آباؤُنا في عهدِ الاستعمار الإيطالي، ومن بعدِهِ الإثيوبي.

هوِّن عليك تادرس: ينبغي أن تظلَّ رابط الجأشِ حتى نُرتِّبَ وُصولاً آمنا لابنتنا. تقولُ سونا

**ساوا: معسكر الجحيم**

وقفَ النَّقيبُ في الجيشِ الإرتري، عبدالرَّحمن – نائب قائد معسكر ساوا للتدريب العسكري – في طابور الصَّباحِ مشيراً إلى فتاةٍ في الثامنة عشرةَ من عمرِها، يداها مقيَّدتانِ خلفَ ظهرِها، وتَجْثُو على ركبتيها، قائلاً:

انتبهو جميعاً، هذه الحالةُ الثَّانيةُ خلال أسبوعٍ واحدٍ كانت تُحاولُ الهَرَبَ.

الحالةُ الأولى كان زميلُكُم جمال، تعلمونَ جميعاً ما حدَثَ له. قُتلَ أثناءَ مُحاولتِهِ البائسةَ للهُرُوبِ من المعسكر.

أمَّا هذه الفتاة .... يصمتُ للحظةٍ .... ويجولُ بنظرِهِ يَمْنَةً ويُسْرى، فسوفَ تَخْضَعُ لمحاكمةٍ عسكريةٍ لتلقى جزاءها، وتكونُ عِبْرةً لمن يعتبر.

فكِّروا مليَّاً قبلَ أن تُقرِّروا الهُروبَ.

تذكَّروا أنَّكم هنا لأداءِ مُهمَّةٍ نبيلة، وهي تأهيلكم للدِّفاعِ عن الوطنِ من أعدائهِ الذين يتربَّصونَ به من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ويُحاولونَ يائسينَ النَّيْلَ منهُ ومن قيادَتِهِ الحكيمةِ.

لقد مضى شهران منذُ دُخولكم المعسكرَ، فاحرصوا على الاستفادةِ من جُرعاتِ التَّدريب العسكريِّ، والمحاضراتِ الفكريةَ حتى تُكملوا الأشْهرَ الستة، ومن ثُمَّ تبدأونَ حياتِكم الجامعيةَ، لتُسهموا في بناءِ وتقدُّمِ إرتريا.

إدريسُ يهمسُ لابنَ خالِهِ عثمان، بعد أن انتهت فترةُ طابور الصباح:

لقد أخبرني جمال بنيِّتِهِ الهروبَ من المعسكرِ.

لكني اعترضتُ بشدَّة، وقلتُ محذِّراً: إيَّاكَ يا جمال، إيَّاكَ أن تُقْدِمْ على هذه المجاذّفةَ محفوفةَ المخاطرِ.

أنتَ يا جمالُ وحيدَ أبويْكَ، أملُهما في هذه الحياة، فرجاءً ... لأجلِ والديكَ ... اعْدِلْ عن هذه الفكرة المجنونة.

لكن يبدو أنَّه قرَّرَ الهُروبَ، وما أخبرني مستشيراً، بل للمعلوميةِ ليس إلا.

ودموعٌ تنحدرُ على خدَّيهِ، يغالبُها دونَ جدوى: رحمَ اللهُ جمال، كان دائمَ الحديث عن والديهِ. ما حالُهما الآن يا تُرى.

**عثمان**: ولماذا لم تُخبرَني حينها؟

لقد ارتكبتَ خطأً فادحاً يا إدريس.

رويَدَكَ يا عثمان، يقول إدريس.

لقد أظهرَ لي قناعتَهُ بنصيحتي. لذلك... لذلك، لم أُعِرْ الأمرَ اهتماماً.

**عثمان**: حتى ولو بدا لك ذلك، كان ينبغي أن تُخبرني.

كنت سأخبرُ الملازم عماد في إدارة المعسكر.

**إدريس مندهشاً**: الملازم عماد!! أمجنونٌ أنت؟

**عثمان**: الملازم عماد ابن خالة جمال، حسبما علمتُ من جمال نفسه. بالتأكيد كان سيردعُهُ.

لكن، قدَّرَ اللهُ وما شاءَ فعلْ ... رحمَ الله جمال ... نحسبُهُ شهيداً بإذن الله.

أفكِّرُ الآن في مصير سميرة، وما ستلقاهُ من ويلاتٍ على أيدي زبانيةِ النظامِ التي لا تخشى في حقٍّ هذا الشَّعبِ المغلوبِ على أَمرِهِ إلاً ولا ذِمةً.

أصواتُ صفَّاراتٍ تُدوِّي في أنحاءِ المعسكرِ إيذاناً ببداية فترةِ التَّدريب.

الجميعُ يَهْرَعُ إلى السَّاحةِ الكبرى وسْطَ المعسكرِ للتَّجمُّعِ، ومن ثُمَّ يتفرَّقونَ حسبَ المجموعات إلى مناطقَ متفرقةٍ داخلَ المعسكر.

## رحلةُ الشَّقاء

لم تَنَمْ سونا ليتلها تلك. تجولُ داخل البيت دون هدف. كلُّ شيء لم يكن اعتيادياً. الليلُ مذ أسْدَلَ أستارهُ بدى غريباً.

الصغيران، مادلين في الثالثةِ من عمرها، ويعقوب في الخامسة. لم يُفارقا سارا طيلةَ اليوم حتى ناما بجوارها على غير العادة. كأنما على علمٍ برحيلها فجرَ الغد.

**سونا:** آهٍ يا ابنتي، عامان على رحيلكِ تانا.

**سارا:** ماما

**سونا:** سارا، ما أيقظكِ يا ابنتي؟

**سارا:** لم أَنَمْ يا أُمِّي.

لا أكادُ أَسْتَوْعبُ خُرُوجي من البيتِ الذي وُلِدْتُّ فيه.

أَنَّى لي أَنْ أَراكُمْ قريباً.. أَو رُبَّما لنْ أَراكُمْ بالمرَّة.

لمْ يَدْرْ بخَلَدي أَنْ أُفارقَكم يوماً.. أَنْتِ وأَبي .. مادلين ويعقوب.. وتانا التي فارقتنا جسداً وما تزال فينا روحاً تُحلِّقُ كمَلَكِ من أَعلى الجِنان يَحلُّ علينا كلَّ مساء ليبعثَ فينا الأَمَلَ كلما داخَلَنا اليأْسُ من هذه الدُّنيا، فنتَشَبَّثُ بالحياةِ نَعيشها آلاماً وآمالا.

لماذا قَدَرُنا نحن الإرتريون أنْ نَعيشَ منافيَ متجوِّلة كزَوْرَقٍ تتقاذفُه الأمواجُ حتى إذا قَذَفَتُه إلى ساحلِ ما يلبَثُ أنْ تَخْطَفُهُ الرِّيحُ فتَرْمي به إلى ساحلٍ آخر.

**تادرس:** ألم تناما!

**سارا:** أبي! ما الذي أيقظك؟

**سونا:** هو مثلي يا ابنتي لم ينم.

**سارا:** ينبغي علينا جميعاً أن ننام حتى نستيقظ باكراً، وأغادر في الموعد المحدد.

الرابعة صباحاً، عبدالقادر صاحب بقالة في سوق أسمرا يطرق الباب.

**تادرس:** عبدالقادر؟

**عبدالقادر:** نعم يا تادرس، هل سارا جاهزة؟

**تادرس،** يفتح الباب برفق: أهلاً بك عبدالقادر، نعم، سارا جاهزة.

قبل أن يدلف إلى الداخل، تادرس يسلم مظروفاً لعبدالقادر، قائلاً:

هذا المبلغ كاملاً، ١٥ ألف نفقة، كما طلبت.

هل الأمور مرتبة كما أخبرتني؟

**عبدالقادر**: لا تقلق، تادرس، اطمئن.. كل شيء على ما يرام.

العربة تابعة للجيش، تحمل مواداً غذائية لإحدى معسكرات الجيش بالقرب من الحدود السودانية.

كما أن سارا ليست الوحيدة. فهناك فتاة، وثلاث شبان معها يشاركونها نفس الوجهة.

سونا تأخذ بيد ابنتها، وتدخلان غرفة مادلين ويعقوب.

تقف سارا عند رأس العصفورين، كما تناديهما دائماً، وبصوت مليء بالشجن:

عصفوريَّ الرَّائعين

يُطِّلان كلَّ صباح

صفيركما ينساب كما النَّسيم

يُوقظان برفقٍ كلَّ نَبضٍ حيْ

يا شمس إرتريا الغدْ

وعد المستقبل والحرية

تادرس ينادي بانزعاج: سونا... سونا

**سونا:** نحن جاهزون تادرس... اصبر قليلاً.

**تادرس:** لا وقت لدينا... رجاء، أسرعا.. العربة في الانتظار، هيا أسرعا.

سونا تضع كلتا يديها على رأس سارا، وتهمس بتعاويذ ترجو بها الحفظ والعناية الإلهية لها، ودمعتان تقطران تحملان أشجان الوداع، علَّه الأخير لا تدري.

تادرس يأخذ بيد ابنته: هيا يا سارا، لم يعد الوقت يحتمل التأخير أكثر من ذلك.

تهرول سونا محاولة اللحاق بسارا فتتعثر وتسقط على الأرض.

تلتفت سارا إلى أمها، فتجثو على ركبتيها تقبلها.

تادرس يفقد جأشه، وينفجر بكاء.

عبدالقادر يطلُّ برأسه إلى الداخل منادياً:

رجاء تادرس.. أسرع لا وقت لدينا.. ينبغي أن نتحرك الآن.. الآن يا تادرس.

عبدالقادر وسارا يخرجان مسرعين.

تادرس وسونا على عتبة الباب يلوحان بكفين مرتجفين لسارا التي تنظر إليهما، ولسان حلها يقول:

كفاكما البضَّتين

كم حنتا عليَّ

غطائي من شرور الدنيا

جناح نسرٍ على فَرْخِهِ

يَقيهِ زمهرير الجبال

**عبدالقادر**: اصعدي يا ابنتي، لا وقت لدينا. أمامنا نصف ساعة بالضبط لنلحق بعربة الجيش قبل أن تغادر.

والسيارة تطوي الأرض طياً، ترسل سارا نظرها بلا تركيز فترمق ساحة اللعب، والمدرسة، وسوق الحي، وهي تمسك بقوة تعويذة أعطتها إياها أمها، فتشعر بالأمان.

آخر بيتٍ رمقته بناظريها كان بيت صديقتها آمنة.

شعرت بأسى عميق إذ لم تخبرها برحيلها، رغم أن الأخيرة زارتها في بيتها قبل يومٍ من المغادرة.

كادت أن تخبرها لولا أنها تذكرت تحذير أمها الشديد لها بأن تجعل الأمر سراً لا سيما أن السلطات تعاقب بالسجن كلَّ من يثبت تورطه في مساعدة شخص على الهروب من البلاد.

**عبدالقادر:** ها قد وصلنا يا ابنتي.

يوسف سائق الشاحنة التابعة للجيش: تأخرت عبدالقادر، كدنا أن نتحرك.

عبدالقادر معتذراً، فيقاطعه يوسف:

أين المال؟

عبدالقادر يسلم يوسف ١٠ ألف نفقة:

شكراً يا ابني، أرجو أن تصلوا بسلام.

يوسف: لا عليك عمي، الأمور مرتبة كما ينبغي كما في كل مرة.

عبدالقادر ملتفتاً إلى سارا:

وداعا يا ابنتي، حفظك الله.

**سارا:** وداعاً يا عمي، شكراً لك. وترمقه بنظرةٍ حتى صعد سيارته كونه آخر عهد بأبويها. ودمعةٌ حَرَّى ترسلها، فترى خلالها البيت، والجوار، والحيَّ، وأسمرا الحبيبة.

قدماها ترتجفان وهي تخطو نحو الشاحنة.

المسافة لا تتجاوز الخمسة أمتار، لكنها في الحقيقة، سنوات من الرَّهَق، والعَنَت لهذه الزَّهرة في صحراء حُبلى بالصَّبَّار.

كل إرتري صبَّار يعتصر الصَّبر ويعتصره... حتَّامَ؟ لا يدريان.

تستقر سارا في أحد أركان الشاحنة، وتجلس بجوار الفتاة، وتسلم على الفتيان الثلاثة الآخرين.

تتحرَّك الشاحنة متمايلة يمنة ويسرى، تهدهد سارا كطفل يوشك أن ينام بين يدي أمه.

سارا للفتاة: أنا سارا من أسمرا.

مرحباً بك سارا... اسمٌ جميل، أنا أسمارينا، من عنسبا.

خمس ساعاتٍ مرَّت، وسارا وأسمارينا تتبادلان الحديث.

تتوقف الشاحنة.. ويوسف ينادي:

انزلوا لتأكلوا بعض الطعام.

سارا لأسمارينا: وهل لديك أي أخبار عن والدك؟

**أسمارينا:** منذ أن اعتقلته السلطات قبل ثلاث سنوات، زرناه مرة واحدة، وحتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها لا نعرف له مكاناً، وهل هو حيٌّ أم ميتٌ لا ندري.

سارا تمسح دموع أسمارينا... هوني عليك أختي.. كُلي شيئاً من الطعام كي نقوى على عناء الرحلة.

استغرقت الرحلة إلى الحدود السودانية خمسة عشرة ساعة تقريباً.

استيقظت سارا على صوت يوسف حيث توقفت الشاحنة عند تخوم قرية تبعد عن المعسكر بنحو ٥ كيلومترات:

ها قد وصلتم، هيا انزلوا.

سارا تضع طرحتها على رأسها فيبدو كقمرٍ حفَّته السحب من كل جانب، وتحمل حقيبتها كما الآخرين، وينزلون من الشاحنة.

أحد الجنود يدخل القرية وما يلبث أن يعود ومعه رجلان.

**يوسف:** أبراهام وآرون سيتوليان نقلكم إلى مدينة كسلا. صحبتكم السلامة.

تتحرك الشاحنة، وسارا ترمقها بوجل، تسائل نفسها:

أيا تُرى سأعود لأسمرا ذات يوم وألتقي أهلي؟ أمي ... أبي ... عصفوريَّ مادلين ويعقوب، وأزور قبر تانا... أذرف دمعتين من رحم الألم، وصدق اليقين بإريتريا حرة قوية شامخة تعانق قرص الشمس.

**أسمارينا:** سارا... سارا

**سارا:** ها.. ها

**أسمارينا:** هيا .. ما بالك .. فيما تفكرين؟

سارا ممسكة بيد أسمارينا تسيران خلف أبراهام وآرون والفتيان الثلاثة حيث يستقر بهم المقام في أحد منازل القرية.

أبراهام: مرحباً بكم. خذوا راحتكم، وفي الصباح الباكر سنتوجه بعربة صغيرة إلى مدينة كسلا. لا تقلقوا .. المسافة قريبة، والطريقة آمنة... ستصلون وجهتكم بسلام.

لم تنم سارا ليلتها تلك ... شيء ما يساورها.. كأنما ترقب خطراً داهماً.

الظلام وأصوات السباع المنبعثة من الجبال المحيطة بالقرية يحشد الخوف والوجل داخلها بطريقة ممنهجة.

لم يخفف نوم أسمارينا بجوارها شيئاً.

نبضاتُ قلبها تضطرب صعوداً وهبوطاً كسجينٍ يخطو نحو المقصلة.

قبل شروق الشمس بقليل، آرون يطرق الباب:

صباح الخير يا بنات.. هيا لتناول الطعام ومن ثمَّ التحرك إذ أن السيارة ستأتي بعد قليل. ويفعل الشيء نفسه مع الفتيان الثلاثة في الغرفة المجاورة.

صوت محرك سيارة بالخارج.

**أبراهام:** ها قد وصلت السيارة. هيا احملوا حقائبهم لنتحرك.

وقبل أن ينهض، الباب يُفتحُ بقوة حتى كادت أضلاعه تنخلع من الجدار.

جنديين مسلحين يدخلان موجهين السلاح نحو المجموعة، وأحدهما يصيح بصوت فج:

استلقوا على الأرض.. استلقوا على الأرض.

يتبعهما ثلاثة جنود بأسلحتهم، ويقيدون أيادي أعضاء المجموعة بقسوة، ويركلون أبراهام وأرون والفتيان الثلاثة.

الجميع يصعدون العربة التابعة للجيش الإرتري فتنتهي بهم إلى المعسكر المجاور.

**قائد المعسكر**: انزلوا أيها الأوباش.

تريدون الهروب إلى السودان... يا لحظكم العاثر... وقعتم في يدي، لن تروا خيراً بعد اليوم أيها التعساء.

آمراً أحد الجنود: أدخلوهم الحراسة حتى نرحلهم إلى أسمرا للمحاكمة.

وفي الحراسة، كان في انتظارهم يوسف.

**سارا:** يوسف!! ما جاء بك هنا!!

**يوسف:** أحد الجنود وشى بي لقائد المعسكر الذي كان يناصفني المال في كل عملية تهريب أنفذها.

لكن هذه المرة قررت ألا أخبره بهذه العملية إذ إنه لا يبذل أي عناء ويأخذ نصف المبلغ. وأعطيت الجنود الذي كانوا معي بعض المال ليتكتموا عن الأمر، لكن يبدو أن أحدهم كان عيناً له علي. وها أنا ذا بينكم كما ترون.

نُقل الجميع إلى أسمرا، وانتهى المطاف بسارا وأسمارينا والفتيان الثلاثة إلى معسكر الجحيم... ساوا.

ورغم أن سارا لم تبلغ سن الثمانية عشر عاماً كشرط للانخراط في الخدمة العسكرية كما ينص قانون الخدمة الوطنية رقم ٨٢ لسنة ١٩٩٥م، إلا أنها أدخلت المعسكر وسرى عليها ما يسري لعلى الجميع.

انقضت الأشهر الثلاثة الأولى، وأصيبت سارا بملاريا خبيثة، ما لبثت أن توفيت على إثرها.

وقف تادرس على جنازتها ريثما يُجهَّز القبر وتأوي إليه لتستريح من رهق الحياة وضنكها:

رحمك الله ابنتي، ورحم أمك التي سبقتك بأسبوع واحدٍ فقط منذ أن تركتينا متوجهة إلى السودان.

لم تذُق طعاماً قطُّ بعدك.

قضت حزناً عليك حتى أسلمت روحها.

الدموع بللت لحيته التي غلب بياضُها سوادَها، وعبدالقادر يربت على كتفه:

هوِّن عليك تادرس... هذا أمر الله.

يتوجه تادرس إلى حيث توسَّدُ سارا قبرها، يهمس في نفسه:

ارقدي يا ابنتي إلى سعةٍ أبدية أرحب من إرتريا التي ضنَّت عليك بحياةٍ كريمة.

أطلقي روحك حرة تسيح في عالم الملكوت.

انعموا أيها الأموات أحراراً، ودعونا في هذا السجن الكبير حتى نتحرر بلقياكم يوماً ما.

١٢ أكتوبر ٢٠٢٢



## د. عثمان مُحمَّد جبر

- "مرايا سودانية" باكورة الإصدارات القصصية.
- تخرَّج في جامعة النيلين بكلية الآداب، قسم الاجتماع، وحصل على درجة الماجستير في الثقافة الإفريقية من جامعة إفريقيا العالمية، والدكتوراة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزية.